الشعر في بلاط النعمان بن المنذر

د. نزهة بوعياد

إمارة الحيرة في العصر الجاهلي:

كانت إمارة الحيرة في العصر الجاهلي أقوى الإمارات العربية، وأطولها عمرًا، وأكثرها استقرارًا وأبلغها تأثيرًا في عرب الجاهلية سواء في مستواها الاجتماعي أو السياسي أوالاقتصادي أو العمراني. وهي مستويات تداخلت فأدت إلى نهضة أدبية كان لعرب الحيرة ولأمرائها فيها أبلغ تأثير في إذكاء قرائح الأدباء والشعراء على وجه الخصوص. وهي نهضة أدبية ارتكزت على عوامل متعددة يمكن حصرها في: الازدهار الاقتصادي والعمراني، ثم الصراع السياسي.

أولاً– الازدهار الاقتصادي والعمراني:

كانت رِقة هواء مدينة الحيرة، وصفاء جوها، وعذوبة مائها، وخصوبة تربتها، إضافة إلى وقوعها على نهر كافر، وقربها من نهر الفرات، أهم ثروة كانت رِقة طبيعية حبا الله بها هذه المدينة، فخولت لأهلها الاشتغال بالرعي والزراعة والصناعة والتجارة. فجمعوا بين البداوة والاستقرار، واهتموا بزراعة النخيل خاصة، والبساتين والجنان.

ونشأت عندهم صناعات بلغت درجة كبيرة من الإتقان والرقي، كان من أهمها، صناعة النسيج[1]، نسج الحرير والكتان والصوف. وعرفت هذه المدينة صناعة الأسلحة من سهام وسيوف ورماح، وعرفت صناعة التحف المصنوعة من العاج، والتحف المعدنية، والأواني الفخارية، والحَلْيِ المرصعِ بالجواهر[2].

---

(1) تاريخ الدولة العربية ص ٢١٧، عبد العزيز سالم.

(2) المرجع نفسه.

وقد كان لموقع الحيرة الاستراتيجي الدور الفعال في نشاط تجارتها، إذ تعامل تجارّها مع الهند والصين والبحرين وعدن، كما تعاملوا مع الفرس ونقلوا موادهم التجارية إلى الحجاز وتدمر وحوران. ولما كان أهل الحيرة تابعين للفرس ومرتحلين إلى ديارهم في أعمالهم وتجارتهم، فقد اطلعوا على أشياء كثيرة من مظاهر الحضارة والمدنية، فأثر ذلك في حياتهم وتفكيرهم: «وكانوا هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة، يحملون إليهم التجارة الفارسية ويبيعونها في أسواقهم ويبشرون بالفرس ومدنيتهم »[٣]

وهو ازدهار اقتصادي تدفقت في نتيجته الأموال الطائلة على أهل الحيرة، فعاشوا في رفاهية وعظمة دفعت بهم إلى منافسة أكاسرة الفرس وقياصرة الروم.

وكان من نتيجة هذا الاحتكاك بالفرس، وهذا الرخاء والترف والثروة أن شكل أهل الحيرة أصول فن المعمار والبناء على شاكلة الفرس، ثم تفننوا فيه[٤]، وجعلوه فنًا يحمل طابعهم الخاص، فأقاموا القصور والأديرة والكنائس فمن القصور: الخورنق والسدير وسنداد[٥] ... ومن الأديرة والكنائس: دير هند الكبرى [٦] ودير هند الصغرى[٧] ودير اللج[٨] ودير مارت مريم[٩]وغيرها.

فسح هذا الازدهار الاقتصادي والعمراني مجال القول للأدباء والشعراء، فالصناعة جعلتهم يتغنون بما تضمه قصورهم من نساج وقين، كقول عمرو بن

(3) فجر الاسلام ص ١٧، أحمد أمين.
(4) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٣/ ٣٠٣، جواد علي.
(5) معجم البلدان ٤٠١/٢ – ٢٠١/٣، ٢٦٦.
(6) المصدر نفسه ٥٤٢/٢.
(7) المصدر نفسه ٥٤٢/٢، ٥٤١ والديارات للشابستي ١٥٧.
(8) المصدر نفسه ٥٣٠/٢.
(9) المصدر نفسه ٥٣١/٢.

كلثوم[١٠]:

إِذْ لاَتُرجِّي سُلَيْمَى أَنْ يَكُونَ لَهَا مَنْ بِالخَوَرْنَقِ مِنْ قَينٍ ونَسَّاجِ

وبما تضمه دورهم من أوان فضية وذهبية، وفرش أسرة حريرية، وذلك في مثل قول عدي بن زيد[١١]:

ثَانِيَاتٌ قَطَائِفَ الخَزِّ وَالدِّيـ بَاجِ فَوقَ ا لخُدورِ وَالأَنْمَاطِ

مُوقرَاتٌ منَ اللُّحُومِ وَفِيهَا لُطُفٌ فِي البَنانِ وَالأَوْساطِ

والتجارة جعلتهم أكثر احتكاكًا بالفرس وبالثقافات الأخرى، فقد خولت لهم نقل الكثير من أفكارهم وثقافتهم، فأثرت في خيالهم وقصصهم[١٢]، وتشبيهاتهم، فهذا المرقش الأكبر يشبه البقر الوحشي وهو يرعى متمهلاً مختالاً برجال من الفرس يمشون مزدهين في قلانسهم وذلك حين يقول[١٣]:

أَمْسَتْ خَلاَءً بَعدَ سُكَّانها مُقْفِرَةً مَا إِنْ بها منْ إِرَمْ

إِلاَّ مِنَ العِينِ تَرَعَّى بها كَالْفَارِسِيِّينَ مَشَوْا فِي الكُمَمْ

ومكنتهم التجارة أيضًا من الاطلاع على أهم الأسواق التجارية، كسوق عكاظ التي لم تعد حكرًا على التجارة، بل عرفت أيضًا بأهميتها الاجتماعية والأدبية، وصارت معرضًا من معارض الأدب والشعر، فقدمها الأدباء والشعراء من كل مكان وأنشدوا فيها قصائدهم، ونقدوا ألفاظهم ومعانيهم، وفاضلوا بين مزايا وعيوب شعرائهم، ونشروا صيت قبائلهم وإماراتهم.

أما العمران، فقد كان لبناء القصور والأديرة أثر كبير في الأدب والشعر، إذ

(10) ديوانه ص ٤٩.

(11) ديوانه ص ١٣٨.

(12) فجر الاسلام ص ٦٧.

(13) المفضليات ص ٢٢٩.

ذكرت هذه الأبنية، وضربت بها الأمثال في الشموخ والعظمة، فأجاد الأدباء والشعراء في وصفهم وتفننوا: قال الأسود بن يعفر يذكر الخورنق والسدير وبارقًا وسنداد(١٤):

أَهْلَ الْخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ وَبَارِقٍ وَالْقَصْرِ ذِي الشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ

وقال المنخل يذكر الخورنق والسدير(١٥):

فَإِذَا انتَشَيتُ فَإِنَّني رَبُّ الخَوَرنَقِ وَالسَّدِيرِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَإِنَّني رَبُّ الشُّوَيْهَةِ وَ الْبَعِيرِ

وقال عدي بن زيد العبادي(١٦):

وَتَأَمَّلْ رَبَّ الْخَوَرْنَقِ إِذْ أَشـ ـرَفَ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ
سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْـ ـلِكُ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّدِيرُ

كما حيكت الأقاصيص حول سنمار باني الخورنق، وضربت به الأمثال، وذلك في مثل قول عبد العزى بن امرئ القيس الكلبي(١٧):

جَزَانِي جَزَاهُ اللهُ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ سِنِّمارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنبِ
سِوَى رَصِّهِ البُنْيَانَ عِشْرِينَ حِجَّةً يُعَالِي عَلَيْهِ بِالْقَرَامِيدِ وَالسَّكْبِ

ومما قيل من شعر في الأديرة قول الثرواني في ديرمارت مريم(١٨):

بِمَارَتَ مَرْيَمَ الْكُبرى وَظِلِّ فِنائِهَا فَقِفِ
فَقَصْرِ أَبِي الْخَصِيبِ الْمُشْـ ـرِفِ الْمُوفِي عَلَى النَّجَفِ

(14) معجم البلدان ج٣ /٢٦٦.
(15) الأصمعيات ص ٥٨ – ٦٠.
(16) ديوانه ص ٨٩.
(17) معجم ما استعجم ٥١٦/٢.
(18) معجم البلدان ٥٣١/٢، معجم ما استعجم ٥٩/٢.

فَأَكْنَافِ الْخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ مَلاَعِبِ السَّلَفِ

وقوله في دير ابن مزعوق(١٩):

قُلْتُ لَهُ وَالنُّجُومُ طَالِعَةٌ فِي لَيْلَةِ الفِصْحِ أَوَّلَ السَّحَرِ
هَلْ لَكَ فِي مَارَفُوثِيُّونَ وَفِي دِيرِ ابْنِ مَزْعُوقٍ غَيْرِ مُخْتَصَرِ

تلك هي أهم الأسباب التي وقفت وراء ازدهار الأدب والشعر، أضف إليها عوامل متمثلة في الاطلاع والاحتكاك بثقافات الأمم الأخرى كالفرس والروم واليونان، ومتجلية أيضًا في العامل الديني الذي أدى إلى ظهور نغمة دينية جديدة، نلمسها في بعض أشعار شاعر الحيرة عدي بن زيد العبادي.

ولا ننسى ما كان في هذا المجال للشاعر من أثر في الازدهار الأدبي والشعري، فمكانته ومنزلته في القبيلة والإمارة العربية في العصر الجاهلي كانت رفيعة وسامية: «كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك، وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعن في الأعراس، وتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يُهنَّؤون إلا بغلام يولد، أو فرس تنتج، أو شاعر ينبغ فيهم»(٢٠). وكان دوره أشبه بجهاز إعلامي، ينشر عبره مفاخره بقبيلته، وهجاءه لأعدائها، ورثاءه لموتاها، وتغنيه بمناقبها وبطولاتها، ودفاعه عن مصالحها، وذوده عن أعراضها، وتعداده لمآثرها، ومدحه لساداتها، وحمله على الأخذ بالثأر، والدعوة إلى السلام.

(19) الديارات للشابستي ١٤٨، ١٤٩«الشواني هذا كوفي من المطبوعين في الشعر والمنهمكين في البطالات، والمتطرحين في الحانات، والمدمنين لشرب الخمر، والمغرقين في اتباع المرد، لايعرف شيئًا غير ذلك ... وكان آخر أمره أن أصيب في حانة خمار بين زقي خمر وهو ميت ».

(20) العمدة ١/١٥٣.

وكان دوره إلى جانب ذلك، دور سفير وشفيع ومستعطف عند الملوك. وكلها أدوار كان يقوم بها قصد الرفع من مكانة قبيلته وتثبيت أقدامها، وفرض احترامها، وإهابة جانبها بين القبائل والإمارات، مقابل حمايته ورعايته وحفظ حقوقه، ومقابل حياة رغدة تعرف الترف والثروة والمال والشهرة، وأبلغ نموذج على هذا، النابغة الذبياني الذي كان شعره صحيفة قبيلته وصحيفة إمارتي المناذرة والغساسنة.

أضف إلى هذه الأسباب في ازدهار الأدب والشعر، ما كان للملوك من حب وميل لهذا الفن، وما كان للشعر من أثر في نصرة ملوك الحيرة وفي تثبيت حكمهم القائم على مهمتي الترهيب والترغيب، لذلك فتحوا بلاطهم للأدباء والشعراء، فعجَّت قصورهم بهم، فتنافسوا وألقوا مدائحهم أمامهم مما جعل هؤلاء الملوك يتبارون بدورهم في إغداق الأموال والعطايا: «وكان أمراء الحيرة مقصدًا لشعراء عرب الجزيرة ينفحونهم بالمال الكثير ليبشروا بهم بين البدو في أنحاء الجزيرة»[٢١].

فلا عجب أن تكون الحيرة في عهد ملوكها اللخميين، خاصة منهم الذين عرفوا بحب الشعر والأدب، كعمرو بن هند،وأخويه النعمان وقابوس ابني المنذر،موئل مشاهير الشعراء الذين حضروا اليها من كل مكان، وتهافتوا على ملوكها، فأنشدوهم شعرهم ونالوا جوائزهم، وكانت لهم معهم أخبار وقصص[٢٢] دفعتهم في أحيان كثيرة إلى هجائهم، والاعتذار إليهم واستعطافهم ومدحهم... وكانت مجالسهم لا تخلو من منافسة للشعراء، ومن نقد بعضهم لبعض، كما

(21) فجر الإسلام ص ١٨.

(22) الأغاني ١١ / ٤٧– ٤٩، ٢١/ ٦–٨، ٢٣ /٥٤٠ –٥٤٤، ما كان لطرفة والمتلمس وعمرو بن كلثوم من قصص مشهورة مع عمرو بن هند، وأشهرها قصته مع عمرو بن كلثوم، وما كان من قصة المنخل والمتجردة زوج النعمان.

كانت تعج بأدباء وخطباء العرب أمثال: أكثم بن صيفي وحاجب ابن زرارة التميميين، والحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريين، وخالد بن جعفر، والحارث بن ظالم المري[٢٣].

وقد رأى الأخباريون أن النعمان بن المنذر كان خير خطباء زمانه، وفي هذا الصدد قال ابن عبد ربه: «قال ابن الكلبي: «قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم، لا يستثني فارس ولا غيرها».

فعدد كسرى، وقد أخذته عزة الملوك، فضائل كل الأمم ونقص من شأن العرب، فقال النعمان: «أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل، لموضعها التي هي به من عقولها وأحلامها، وبسط محلها، وبحبوحة عزها، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك، وأما الأمم التي ذكرت، فأي أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها، قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وأنسابها وأحسابها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها ...»[٢٤].

فلما قدم النعمان الحيرة، أرسل في طلب أدباء وخطباء العرب أمثال أكثم بن صيفي، وحاجب بن زرارة التميميين، وإلى الحارث بن عباد وقيس بن مسعود البكريين، وإلى خالد بن جعفر، وعلقمة بن معد يكرب الزبيدي، والحارث بن ظالم المري، فلما قدموا عليه في الخورنق، اقتص عليهم ما قاله كسرى وما رده عليه، وأخبرهم بتخوفه مما قد يفعله كسرى بهم كفعله بملوك الأمم المجاورة له، الذين يؤدون الخراج، ثم دعا لهم في خزانته من طرائف حلل الملوك، لكل رجل منهم

(23) العقد الفريد ١ / ٢٧٩.

(24) العقد الفريد ١ /٢٧٦٠– ٢٧٩.

حلة، وعممه عمامة، وختمه بياقوتة، وأمر لكل منهم بنجيبة مهرية وفرس نجيبة، وكتب لهم كتابًا وبعثهم إلى كسرى. فلما قدموا مجلسه، خطب كل منهم خطبة بهت لها كسرى وأعجب ببلاغتها وفصاحتها[٢٥]. فكانوا خيرة من عرف بالخطابة وحسن الكلام وبلاغته وقتئذ.

ثانيا – الصراع السياسي:

كان التنافس والصراع أهم لبنة ارتكز عليها المناذرة في علاقتهم بالقبائل والإمارات العربية المجاورة.

فبالرغم من المواقف المتعددة التي حاولت أن تنهجها هذه الإمارة تجاه القبائل العربية، قصد حماية مصالحها، التي تكمن في موقف الوسيط، وموقف المشرع للتقاليد والعهود، وموقف المدافع عن ممتلكاته، فقد كانت تنتهي كلها بصراعات وحروب، نذكر منها ما حصل بين بكر وتغلب لما احتكما في أمرهما إلى عمرو بن هند[٢٦]، ونذكر أيضًا يوم طخفة، ويوم أوارة الأول، ويوم أوارة الثاني. وكلها أيام بين المناذرة والقبائل العربية، تنوعت أسبابها بين تَخَلٍّ عن عهد وتقليد كما في طخفة[٢٧]، ونقض عهد وحقد بين القبائل كما في يوم أوارة الثاني[٢٨]، وبين خروج عن طاعة كما في يوم أوارة الأول[٢٩].

(25) نفسه ١/ ٢٧٩، ٢٨٠.

(26) الأغاني ١١/٣٧، ٣٨، ٤٣.

(27) الكامل في التاريخ ١ /٣٩٦، لما أراد الملك اللخمي نقض عهده بسحب الردافة من بني يربوع ليجعلها في بني تميم كان هذا اليوم الذي انتهى بهزيمة المناذرة.

(28) الأغاني ٢٢/ ١٩٠، ١٩١، ١٩٥، الكامل في التاريخ ١/ ٣٣٥، حين حرضت تميم الملك عمرو بن هند على طيء، سبب هذا في إخلاف الملك عهده الأمان لطيء، وسبب في حقد طيء على تميم، مما جعل القبيلة الأولى توغر صدر الملك على تميم، فكانت النتيجة أن غزا عمرو بن هند بني دارم من تميم وقتل منهم نفرًا كثيرًا في هذا اليوم.

ونذكر أيضا يوم العذيب[٣٠]، الذي هو صراع حول ماء للمناذرة أيام النعمان بن المنذر، ويوم السلان[٣١]، وهي إغارة على لطيمة للنعمان بن المنذر، ويوم الشقيقة[٣٢]، وهي إغارة على إبل النعمان.

حروب وأيام لا تكاد تهدأ حتى تشتعل من جديد، وقد عرف فيها المناذرة غلبة كما عرفوا فيها إخفاقًا.

وكان من الطبيعي أن تحدث مثل هذه الحروب، لأن الدفاع عن الممتلكات والدفاع عن المصالح الخاصة هو إثبات للذات وللوجود.

وقد تجاوز هجوم القبائل العربية ممتلكات المناذرة إلى ممتلكات الفرس والإغارة على تجارتهم، مما جر عليهم أيامًا كيوم الصفقة[٣٣].

ولم يكن هذا الصراع والتنافس يقتصر على علاقة المناذرة بالقبائل العربية المجاورة فقط، بل تعداه إلى علاقتهم بالإمارات المجاورة لهم ككندة والغساسنة، فلا ننسى ما فعله المنذر بن ماء السماء بإمارة كندة يوم جفر الأملاك[٣٤]، وكذا أشهر وأخطر حرب دارت بين المناذرة والغساسنة في عين أباغ، ومرج حليمة

(29) الكامل في التاريخ ١ / ٣٣٤، لما خرجت بكر عن طاعة المنذر بن ماء السماء قتلهم شر تقتيل على جبل أوارة.

(30) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٣ /٢٧٨، بعث النعمان بن المنذر الى رئيس اليمن ينكر عليه بلوغ أفراد له (العذيب) ، فكانت النتيجة الحرب التي لقيت فيها اليمانية هزيمة.

(31) الكامل في التاريخ ١ / ٣٩١.

(32) الأغاني ١١ / ٤٣.

(33) الكامل في التاريخ ١ / ٣٧٨، حين أغارت تميم على تجارة كسرى، فرد الفرس إغارتهم وأوقعوا بهم.

(34) المصدر نفسه ١ / ٢٥٦، حيث أسر المنذر العديد من أسرة الحارث الكندي، وذبحهم في جفر الأملاك.

التي لم تهدأ حتى قتل فيها المنذر بن ماء السماء، وانتصرت فيها الشام على العراق، فكانت بذلك انتصارًا للروم على الفرس، لأن ما كان بين هاتين الإمارتين من اضطرابات لم يكن في العمق إلا تعبيرًا عمّا كان بين الدولتين العظميين، الفرس والروم، من صراع وتنافس.

وهكذا ارتكز العامل السياسي لإمارة الحيرة على مبدأ الصراع والتنافس، الذي أدى إلى نشوب حروب خلفت ما خلفته من خسارة وحزن وفخر ومباهاة وإعجاب واعتزاز و ضغن ونقمة. حروب إذا كان لها من المساوئ ما لها، فقد أثرت بليغ الأثر في إذكاء القرائح، وفي نهضة وازدهار الشعر والأدب .

وعلى اختلاف وتعدد هذه المعارك والأيام اختلف الشعر وكثر، وتنوعت أغراضه، فكان خير ديوان لحياة العربي في الجاهلية عامة، وحياة ملوك الحيرة خاصة.

ويكفي من هذه الأيام أن ظفر الشعر الجاهلي بمعلقتين من خير القصائد الشعرية وهما: معلقتا الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم، فكانتا ملحمتين خالدتين، قيلتا في سبيل الدفاع عن قبيلتين كبيرتين هما بكر وتغلب، بعد أن احتكمتا في أمرهما إلى الملك عمرو بن هند، فحدثت ملاحاة في مجلسه انبرى لها كل من الشاعرين بحجته، فكان أن فضل الملك فيها، في نهاية المطاف، بكرًا على تغلب، وكان لهذا الحكم أثره العميق في خلق الأضغان التي تَرَتَّب عليها وعلى غيرها مصرع عمرو بن هند على يد عمرو بن كلثوم.

هذا وقد اقتضت الحروب بين الإمارات تقريب الشعراء لمدحهم والإشادة بعظمائهم بين قبائل العرب في البادية،كما اقتضت تنافس الشعراء في إلقاء مدائحهم أمام ملوك الإمارات، فأصبح لكل إمارة شعراؤها، يدافعون عنها ويمدحونها ويفتخرون ببطولاتها وشجاعتها، ويسجلون أيامها ومعاركها. فازدهر الشعر،

وذكرت الأيام في العديد من الأشعار، ونذكرعلى سبيل المثال ما قاله الأعشى في يوم أوارة الأول[٣٥]:

سَبَايَا بَنِي شَيْبَانَ يَوْمَ أوَارَةٍ عَلَى النَّارِ اِذْ تُحْلَى لَهُ فَتَيَاتُهَا

وما قاله في يوم الصفقة[٣٦]:

سائِلْ تَمِيمًا بِهِ أَيَّامَ صَفْقَتِهِم لَمَّا أَتَوْهُ أَسَارَى كُلُّهُمْ ضُرَعا

وما قاله الحارث بن حلزة في يوم الشقيقة[٣٧]:

آيَةٌ شَارِقُ الشَّقِيقَةِ إِذْ جَا ؤوا جَمِيعًا لِكُلِّ حَيٍّ لوَاءُ
حَوْلَ قَيْسٍ مُسْتَلْئِمِينَ بِكَبْشٍ قَرَضِيٍّ كأَنَّهُ عَبْلاَءُ
فَجَبَهْنَاهُمْ بِضَرْبٍ كَمَا يَخْ رُجُ مِنْ خُرْبَةِ الْمَزَادِ الْمَاءُ

وقال امرؤ القيس في جفر الأملاك[٣٨]:

مُلُوكًا مِنْ بَنِي حُجْرِ بْنِ عَمْرٍو يُسَاقونَ العَشِيَّةَ يُقْتَلونَا
فَلَوْ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ أُصِيبوا وَلَكِنْ فِي دِيَارِ بَنِي مَرِينَا
فَلَمْ تُغْسَل جَمَاجِمُهمْ بِغَسْلٍ وَلَكِنْ بِالدِّماءِ مُرَمَّلينَا
تَظَلُّ الطَّيْرُ عَاكِفةً عَلَيْهِمْ وَتَنْتَزِعُ الْحَوَاجِبَ وَالْعُيُونَا

وقال النابغة في يوم حليمة وعين أباغ[٣٩]:

يَوْمَا حَلِيمَةَ كَانَا مِنْ قَدِيمِهُمُ وَعَيْنُ بَاغٍ، فَكَانَ الأَمْرُ مَا ائْتَمَرَا

(35) ديوانه ص ٧٩.
(36) ديوانه ص ٢٢٩.
(37) ديوانه ص ٤٩، ٥٠.
(38) ديوانه ص ٢٠٠.
(39) ديوانه ص ٢٠٦.

وكما أدت الحروب إلى ازدهار الشعر، فقد ساهمت في ازدهار الأمثال، ونذكر منها «ما يوم حليمة بِسِرّ »[٤٠]، و«أفتك من عمرو بن كلثوم»[٤١]...

إضافة إلى الأمثال ظهرت القصص وازدهرت، واتخذت موضوعًا للسمر والسهر، وكانت تدور حول الحروب بين القبائل العربية فيما بينها، وبينها وبين الإمارات، وبينها وبين الأمم الأخرى[٤٢].

كما أدت هذه الحروب إلى العناية بالحكم والمواعظ التي كانت وليدة حوادث الدهر، وحثت الجاهلي على تعظيم القوة وتحقير الضعف، كما حثته على فضائل إنسانية مثل العفة والحلم والأمانة.

ومن هذه الحكم والمواعظ ما نجده في شعر النابغة وشعر عدي بن زيد وغيرهما .

* * *

(40) مجمع الأمثال للميداني ٢ /٢٧٢.

(41) المصدر نفسه ٢ / ٨٩.

(42) فجر الاسلام ص ٦٦، ٦٧.

شعرالمدح في الحيرة معانيه وأهدافه
(مدح النعمان بن المنذر نموذجًا)

شعر المدح:

لقد ارتأينا الاهتمام بغرض المدح في الشعر الذي قيل في الحيرة، وذلك لما له من أهمية قصوى، ولكونه يسجل أحداثًا تاريخية وسياسية واقتصادية وفكرية ونفسية لملوك المناذرة وللشعراء الذين عايشوهم ووقفوا إما معهم أو عليهم. هذا فضلاً عن أن هذا الغرض هو من أبرز الفنون الشعرية، إذ ارتبط بالتطورات التي عرفها العرب عبر العصور، فرافق الشعرَ منذ بدايته إلى اليوم، ولم يغب لحظة عن مسرحه.

لم يكثر الشعراء في مختلِف العصور في فن من الفنون، قدر ما أكثروا في المدح وتنافسوا فيه، ووقفوا عبقرياتهم على صناعته، حتى احتلت قصائد المديح الصدارة، وامتلأت بذلك الدواوين الشعرية، وأصبح النقاد أنفسهم يضعون مصنفات أخذت بأيدي الشعراء للضرب على الوتر الذي يهز كيان الممدوح فيرضى عن المادح، وحددوا لذلك قيمًا يمكن حصرها في: العقل والعفة والعدل والشجاعة[٤٣]. وغدا المديح معها إكبارًا للمروءة وتمجيدًا للشجاعة، وإعجابًا بالفضيلة. وهي صفات جميلة، كَوَّنت الدافع الطبيعي للمدح في مراحله الأولى من العصر الجاهلي عند الشعراء، فوقفوا عندها موقف الإعجاب، فقامت قصائدهم على الثناء المجرد، إلى أن تطورت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فتداخلت الغايات والمنافع، ولم يعد الإعجاب الدافع الوحيد وراء فن المدح، بل أضيف إليه الشكر والاعتذار والاستعطاف والتهديد والتحريض ...، وبرزت هذه الدوافع أغراضًا مواكبة للمدح، حتى أضحى معها المدح توطئة لها بعد

(43) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ٩٦.

أن كان مستقلاً بذاته.

واعتمادًا على هذه الأهمية الشعرية لغرض المدح، سنقف عند:

مدح النعمان بن المنذر:

(النابغة الذبياني – عدي بن زيد – الأعشى ميمون – المثقب العبدي – لبيد بن ربيعة)

لا يختلف اثنان حول ما احتله النعمان بن المنذر من شهرة كبرى في عصره، سواء على مستوى ازدهار إمارته، أو من أحاط به من الشعراء، أو ما قيل فيه من شعر.

وأن يزدهر الشعر في عهد ملك من الملوك، معناه ازدهار على جميع الأصعدة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية. وهذه حال إمارة الحيرة في عهد النعمان، فقد وصلت إلى أوج ازدهارها، مما خول لملكها إغداق الهبات على الشعراء، وجلبهم حتى يكونوا اللسان الناطق والسجل الموثق لعظمته وعظمة إمارته، فضلاً عن تذوقه للأدب والشعر خاصة،مما جعل شخصيته تجمع بين الإنسان العاشق للملك والموطد له، وبين المحب للشعر الذي تهافت عليه الشعراء من كل البقاع. لذلك استمتع بجلسات الشعراء وبشعرهم، ونالوا من جوائزه وعطاياه، فمدحوه واعتذروا إليه وقالوا في مرضه، وحرضوه واستعطفوه واستعانوا به على ملماتهم.

أ– المدح والاعتذار:

لقد كثر الشعراء في بلاط هذا الملك، واحتلوا مراتب متفاوتة، وكان النابغة الذبياني شمسهم الساطعة، التي أراد الحساد حجبها وأفولها.

احتلت قصائد المدح والاعتذار– التي قيلت في النعمان بن المنذر– في ديوان النابغة الصدارة بـ(٩٦بيتًا)، توزعت على خمس قصائد هي: الدالية والعينية و البائية واللامية ثم النونية.

ولنبدأ بالقصيدة الدالية[٤٤] التي استهلها الشاعر بقوله :

يادارَمَيّةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ أقوَتْ وطال عليها سالفُ الأمدِ

ثم انتقل إلى الاعتذار فقال:

فَتِلْكَ تُبْلِغُنِي النُّعْمانَ، إنَّ لهُ فَضْلاً عَلى النَّاسِ فِي الْأَدْنَى وَفِي الْبُعَدِ

فلفضل هذا الملك على كل الناس، امتطى الشاعر ناقته وهمَّ بالرحيل إليه للتقرب منه ونيل رضاه، معتمدًا المدح والاعتذار سلاحًا يفرض به وجوده وذاته، لذلك نعتهُ بأحسن المعاني: بالسماحة والعطف، والرفعة والسمو. وسأله بعدها في رفق بأن يكافئ الذي أطاعه، وينفعه بطاعته ويرشده لغايته، ويعاقب من عصاه عقابًا لا هوادة فيه حتى يرتدع غيره من الخارجين عن حدوده. كما سأله بأن يشدد غضبه على القريبين منه في العظمة والقوة والملك، وأن يهب عفوه وسماحته وكرمه لمن هم دونه منزلة وشأنًا.

وبعد أن لطف النابغة من حدة الجو وحرارته بمدحه للنعمان، باشر الاعتذار مقسمًا بالكعبة وبدماء القرابين المهداة للأنصاب والتماثيل، بأنه بريء مما نسبه إليه الوشاة – الذين قالوا مقالة شقي بها الشاعر وجرت عليه الهم والغم واليأس والقنوط – فهو مع براءته يستنزل شتى اللعنات والمصائب على نفسه إن كان كاذبًا فيما حُدِّث به النعمان .

ويتابع النابغة في تهويل الخطب، ويعظم من شأن النعمان، ويهون من قدر نفسه بقوله: ما إنْ علمت بتهديدك ونفسي خائفة غير مستقرة، وغير مطمئنة لما يمكن أن تحدثه بي. لذلك أرجوك أن تترفق بي وأن لا تستعجل في أمري. وكذا أطلب منك التريّث والحكمة في اتخاذ القرار، وألاّ ترميني بما لا أطيقه منك، فالناس جميعًا فداء لك، كما أفديك بنفسي وولدي ومالي.

(44) ديوانه ص ١٤– ٢٨ .

ويقف الشاعر مرة أخرى ليتأمل مثلاً يعظم به النعمان، ويعزز به ما قاله سابقًا، فلم يجد خيرًا من الفرات وسيلة لمقارنته بالملك في العظمة والكرم والقوة والشدة.

وينتهي الشاعر إلى البيتين الأخيرين، فيعلن أن المعاني التي تحملها القصيدة، ما هي إلا ثناء للنعمان يبغي من ورائها الإقرار بالفضل والمعذرة، وتبرئة نفسه ورد كيد الوشاة، فإن نفعت فهو المراد، وإن أخفقت واستحال الطلب، فسيكون من أسوأ الناس حظًا، وأنكدهم عيشًا، وأبأسهم وأشقاهم حياة .

هذه هي الدالية التي اعتمدناها سبيلاً إلى غرض المدح والاعتذار. أما القصائد التي سنستنطقها قصد الاقتراب من غرض الاعتذار والمدح فهي: العينية والبائية واللامية والنونية .

ويقف الشاعر في قصيدته العينية، [التي استهل اعتذارياته فيها بقوله(٤٥):

وَقَدْ حَالَ هَمٌّ دُونَ ذَلِكَ شَاغلٌ مَكَانَ الشِّغَافِ تَبْتَغِيهِ الأَصَابعُ

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ]

عند الهم الذي انتابه نتيجة وعيد النعمان له. ومع أن النابغة لا ذنب له، فقد تسبب له هذا الوعيد في الرهبة والفزع، اللذين دفعا به إلى القسم وتبرئة نفسه مما نسبه إليه الوشاة، كما دفعا به إلى تفنيد قول خصومه من بني قريع، وقد اتهموه بقول باطل لاصحة له، ونسجوا حوله أحاديثهم الخادعة، معتمدين التزوير والكذب والبهتان، التي لا يستحقون عليها إلا الهجاء، فهو لم يكن ليقولها ولو كان مجنونًا مكبل الأيدي. وكيف يقولها ويأثم في حق الذي يدين له ويدخل في طاعته ؟

وبرغم محاولات الشاعر العديدة في تبرئة نفسه وإظهار ظلامته، بدا متخوفًا من تشكك النعمان به وعدم تصديقه إياه، وتهديده له. لذلك تملقه بتعظيم

(45) ديوانه ص ٣٠– ٣٩ .

سلطانه وعدله في تساؤله الآتي: كيف بك أيها الملك مع ما تحمله من قوة وسيطرة وكرم وعدل ووفاء ومعروف تتهدد عبدًا أمينًا طائعًا، وتترك آخر ظالمًا حائدًا عن الحق ومذنبًا ؟.

ولئن كان الشاعر لا ينتظرعن سؤاله جوابًا، فإنه في نهاية القصيدة وهو يدعو للنعمان بالمزيد من النعيم والخير والكرم، يؤكد الغاية المنشودة منه الكامنة في الرضا والغفران.

وبنفس القلق والحزن السابقين، نتيجة تهديد النعمان للنابغة ووعيده له، وبنفس الرغبة في تكذيب الوشاة يفتتح الشاعر قصيدته البائية بقوله(٤٦):

أَتَانِي – أَبَيْتَ اللَّعْنَ – أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ الَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصبُ

ويقسم فيها مرة أخرى بأن ما جاء به الوشاة ما هو إلا افتراء باطل لا ذنب له فيه. لكن إن كان ذنبه هو علاقته بالغساسنة وتوده لهم، فما ذاك إلا اعتراف بجميل أسلفوا إليه فيه، فقد حل بهم وبالغوا في إكرامه حتى حكموه في أموالهم، فشكر لهم صنيعهم بمدحهم، شأنه في ذلك شأن ما يفعله النعمان مع الذين يؤثرهم على غيرهم، ولا يرى ذنبًا في شكرهم له.

ويستجدي النابغة عفوالملك عنه وغفرانه له فيخاطبه بقوله:أي الرجال معصوم من العيوب والهفوات؟ فإن أردنا الاقتصار على المعصومين، فلن نبقي لأنفسنا لا أخًا ولا صديقًا، فالأفضل ترميم ما صدع بالعفو والمغفرة. أما عن نفسي فإن ظلمتني فما ظلمت إلا عبدًا مطيعًا متقبلاً لظلم سيده، وإن عفوت عني وسامحتني فليس غريبًا على مثلك أن يعفو ويصفح ويسامح.

ويؤكد النابغة في لاميته [التي استهلها في اعتذارياته ومدحه بقوله(٤٧):

(46) ديوانه ٧٢ –٧٤.

(47) ديوانه ص ١٤٩ – ١٥٢.

فدَاءٌ لامْرِئٍ سارَتْ إِلَيهِ بِعِذْرَةِ رَبِّهَا عَمِّي وَخَالي
وَمَنْ يَغْرِفْ مِنَ النُّعْمَانِ سَجْلاً فَلَيْسَ كَمَنْ يُتَيَّهُ فِي الضَّلاَلِ]

الرغبةَ الأكيدة في تقبل النعمان لمعذرته، والرغبة في نيل رضاه وكذا الرغبة في ألاّ يعجل عليه بالسخط والغضب .

كما يؤكد أيضًا عبر قسمه عدم إغفاله يومًا لشكره وطاعته، وذلك لأن جل ماله من عطائه، فكيف يتجرأ على خيانة أمانته، ويتحدى قوته، ويتنكر لسخائه؟.

ونصل إلى القصيدة النونية التي استهل فيها اعتذارياته ومدحه بقوله(٤٨):

كَأَنَّ الْهَمَّ لَيْسَ يُرِيدُ غَيْرِي وَلَوْ أَمْسَى بِهَا شَتَّى هُدُونُ
وَقَالَ الشَّامِتُونَ هَوَى زِيَادٌ لِكلِّ مَنِيَّةٍ سَبَبٌ مُبِينُ

فنجد النابغة يكرر المعاناة السابقة نفسها نتيجة دسائس الشامتين به عند النعمان، كما نجد القسم نفسه بالمقدسات وبقطع يمينه.

ويتابع الشاعر، فيركز على ما خلفته ملامة النعمان في نفسه من خوف وحرج ولعنة وسهاد. حتى إنه لِخوفه لم يفكر في ملاذ يلوذ به، أوحصن يحصنه، إلا اللجوء إلى النعمان حتى لايشك في أمره، ويظن به الظنون، خاصة وأن أمله كبير في نيل العفو والصفح والمغفرة من الملك، الذي هو خير الناس ملكًا وأعزهم جارًا، بعث على الأرض إمامًا والناس رعية، فبحياته يحيون، وبمماته ينهبون وبعطائه ينفعون، وبسخطه يشقون.

ويواصل النابغة اعتذارياته في القصيدة الرائية التي ندرجها ضمن المدح والقول في المرض، ويقدمها بقوله(٤٩):

(48) ديوانه ص ٢٦٢– ٢٦ .
(49) ديوانه ص ٦٧ –٧١.

كَتَمْتُكَ لَيْلاً بِالْجُمُومَيْنِ سَاهِرا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرَا

فيشكو همَّين انتاباه، حدد أولهما بظاهر متمثل في اشتداد المرض على النعمان. وحدد الثاني في باطن مستكن سبق أن أفصح عنه في قصائده السابقة، وهو متعلق بدسائس الأعداء ووعيد النعمان وتربصه به، مما جعل الشاعر يقسم مرة أخرى على المرافعة أمام الملك قصد جلب براءته، لأنه لا يبغي جارًا سواه. لذلك مدحه وأثنى عليه، ودعا له بالظفر وأراد فداءه بأهله وماله وإن كان في مكان بعيد عن الملك فيه عزة ومنعة.

ويرق النابغة لحال النعمان، وهو على فراش المرض، فيقتصر على المدح والقول في المرض في أبيات أربعة له قال في مقدمتها(٥٠):

أَلَمْ أُقْسِمْ عَلَيْكَ لَتُخْبِرَنِّي أَمَحْمُولٌ عَلَى النَّعْشِ الْهُمامُ

يلوم فيها حاجب الملك على عدم إخباره حقيقة مرض النعمان، كما يصف فاجعة الناس إذا ما أدى هذا المرض إلى هلاكه، يصف بؤسهم وتهديد أمنهم، وشدة عيشهم ...

وهكذا ما إنْ نصل إلى نهاية القصائد المدحية الاعتذارية للنابغة،حتى نجد أنفسنا أمام ملاحظات يمكن تحديدها فيما هو آت:

– النابغة كان معتزًّا بنفسه: فهو وإن كان غرضه الدفاع لرد ما نسب إليه من قول زور عند الملك، لم يستهل قصيدته (الدالية) بالاعتذار، بل إنه مدح ثم اعتذر، أي أنه جعل الاعتذار متفرعًا عن المدح، لا غرضًا مستقلاً بذاته يفقد معه الشاعر هيبته ووقاره.

– هذه القصائد المدحية الاعتذارية، لو أعدنا ترتيبها ضمن قصيدة واحدة، مع دمج معانيها المتكررة، لحصلنا على قصيدة تستهل بمدح وتتطرق إلى اعتذار

(50) ديوانه ص ١٠٥، ١٠٦ .

وتختم بمدح، وتكون النتيجة سيطرة المدح على الاعتذار. وهو تأكيد هذه العزة بالنفس.

– هذه القصائد تتوزع بين المدح والاعتذار، سواء تقدم أحدهما أو تأخر.

– وإذا نظرنا في المعاني العامة لهذه القصائد، وإلى حالة الشاعر النفسية وأرقه وهمومه، نخلص إلى سيطرة الاعتذار على المدح وخدمة هذا الأخير له. خصوصًا أننا نعلم أهمية استهلال الاعتذاريات بالمدح لأنه يُهَيِّئُ نفسية السامع، ويغسل دواخل نفس الممدوح لاستقبال عهد جديد، يصفح خلاله عن الماضي المثقل بزلاته .كما نعلم قيمة المدح في الخاتمة، وما له من الأثر في تزكية الموضوع الرئيسي، وإزالة شبح الحقد من نفسية الممدوح.

ونستشف أن النابغة لم يكن اعتباطيًا أو عشوائيًّا في نظمه لأبياته الاعتذارية، إذ رسم خطة محكمة ومتقنة، تركت وقعًا في النفس سواء لدى النعمان أو المتلقّي عامة، وكان من أهم خصائصها الدفاع عن قضية مصيرية، شغلت اهتمام الشاعر وجعلته لا يرى غيرها، فنظر إليها بعين قلقة أنسته كل جمال، فعاش حالة نفسية متأزمة، حاول أن يوفق بينها وبين اعتذارياته التي اعتمد فيها المدح والقسم والحجة، وضرب الأمثال والحكم واستقراء التاريخ، وهي وسائل حاول التقرب بها إلى النعمان وكسب ثقته ونيل رضاه. كما اعتمد الرهبة والرغبة سبيلاً للخلاص من محنته، فنطقت قصائده بكل إحساساته، واقترنت الاعتذاريات باسمه، وأصبحت فنًا مبتكرًا له سماته ومميزاته، عرف نضجه عند النابغة وأخذ استواءه على يده. وكيف لا وهو شاعر بلاط وسياسة، ينتظر منه تقديم قرابين الشعر تمجيدًا وتعظيمًا.

فلا أحد من الشعراء نال حظه في الحياة، ولا تنافست فيه الملوك وتملقته بالألطاف واستزادته بالتألق في الحباء. وهو مع ذلك سفير عشيرته لدى الملوك،

وشفيعهم عند النوائب، وزعيمهم يفتي في أمورهم فيسمعونه ويطيعونه.

وهكذا بدا أن عوامل كثيرة أسهمت في غرض المدح عند النابغة نذكر أهمها:

– العامل السياسي، المتمثل فيما كان من صراع بين إمارتي المناذرة والغساسنة الذي كَوَّن تربة خصبة لشعر هذا الغرض وأنواعه عند شاعرنا .

– العامل الاقتصادي والفكري، المتجلي في صراع الشعراء مع النابغة وحسدهم وكيدهم له عند النعمان قصد إبعاده عنه، خوفًا على منافعهم المادية والأدبية الشعرية، قال حسان بن ثابت: «فحسدته على ثلاث لا أدري على أيتهن كنت له أشد حسدًا: على إدناء النعمان له بعد المباعدة، ومسامرته له وإصغائه إليه، أم جودة شعره، أم على مئة بعير من عصافيره أمر له بها» (٥١).

ب– المدح والاستعطاف:

وننتقل من مدح النابغة الذبياني للنعمان واعتذارياته له إلى مدح عدي بن زيد العبادي والأعشى ميمون والمثقب العبدي للملك نفسه واستعطافهم له، ويمكن من البداية أن نقرر حقيقة وهي: أنه لاوجود لمدح خالص في النعمان عند هؤلاء الشعراء، بل كل ما عثرنا عليه هو: مدحٌ مواكِبٌ للاستعطاف .

والاستعطاف على العموم هو أقرب الألوان إلى الاعتذار، قال عنه صاحب المنهاج: «فملاك الأمر فيها التلطف والإثلاج إلى كل معتذَر إليه أو معاتَب أو مستعطَف من الطريق الذي يعلم من سجيته أو يقدر تأثره لذلك»(٥٢).

وهذا الاستعطاف إن كان يأتي أحيانًا في صورة الاعتذار، ويعتمد النهج نفسه،فهو في الفهم يختلف عنه، لأنه لا يكون إلا من صغير نحو كبير، في حين

(51) الأغاني ١١/ ٢٥ .

(52) منهاج البلغاء للقرطاجني ص ٣٥٢ .

أن الخطاب في الاعتذار قد يكون من صغير إلى كبير، أو من كبير إلى صغير، أو بين شخصين متساويين في القدر والمنزلة.

انطلاقًا من هذا المفهوم نعتبر الاستعطاف نوعًا من أنواع غرض المدح، مستقلاً بذاته غير تابع للاعتذار. وهو لون سنقوم بمعالجة ما قيل فيه من شعر في النعمان اعتمادًا على التساؤلات الآتية: كيف وظف الشعراء المدح لمصلحته؟ وما هي الغاية منه ؟وهل أعطى أكله وثماره؟ بمعنى هل حَقَّق الملك لهؤلاء الشعراء الأمر الذي من أجله مدحوه ثم استعطفوه؟

ولنبدأ بقصيدتين لعدي بن زيد العبادي من هذا النوع المدحي،اشتركتا تقريبًا في مجمل عدد الأبيات، واختلفتا من حيث عدد ما خصص للأبيات المدحية والاستعطافية التي تقدر في القصيدة الأولى بـ(٣٧) بيتًا من مجموع (٥١) بيتًا، وفي الثانية بـ(١١) بيتًا من مجموع (٥٠) بيتًا.

وهما قصيدتان استهلتا معًا بوصف الشاعر لحسرته على الذي مضى من نعيم، وما آل إليه من حزن وهو في السجن، وقد كاد له الحساد وظلمه الحبيب.

والشاعر وهو يباشر الموضوع الرئيسي في قصيدته الأولى بقوله(٥٣):

مَنْ مُبْلِغُ الصَّعْبَ عَنْ عَانٍ يَوَدُّ لَهُ طُولَ الْحَياةِ وَفِيما رَامَ إِظْهارَا

طلب من يبلغ النعمان رسالته، التي ضمنها استعطافه وتمنيه له بطول العمر مع النصر، بالرغم من رميه له في السجن.وكذا ضمنها سروره وهو يسمع عنه أخبارًا غير مشوبة بفضائح هلاكه، التي ما هي إلا فزع للناس وتشتت للعرش ...كما ضمنها حمده لله على أنه لم يكن السبب في تشتيت الكلمة والشمل، بل كان المثبت للملك الحافظ له، المادح له بالرفعة والعدل والعطاء الجزيل.

(53) ديوانه ص ٥٠– ٥٥.

وبذلك حاول عدي أن يسلك بأسلوبه التلطف والإثلاج في هذا الموضوع، فخاطب صاحبه مؤثرًا في نفسيته ووجدانه. إذ عظم من شأنه، وأظهر مدى حبه له ورغبته في تفوقه، وإن لم يجن هو من وراء ذلك سوى السجن والهلاك.

وتضخيمًا لهذا الاستعطاف يتجاوز الشاعر ذاته فيدعو الرعية إلى شكر الله، الذي خص هذا الملك دون غيره بحكمهم، ثم يصفه بأحسن الصفات، بالقوة والشجاعة وحفظ الجوار، وتوحيد المملكة، وحلاوة الشمائل والفعال، وكثرة النعم والعطايا.وكلها قيم مدحية اعتمدها الشاعر وترًا حساسًا ضرب عليه لإثارة عطف النعمان.

ويزيد الشاعر من حدة المدح والاستعطاف، فيقسم باليمين والأصنام، أنه لو مات الملك، لزالت دعائم الاستقرار وحل العار، وفقد العدل. كما يؤكد أن كل رغبة في تغييره هي شك بالله الذي يخضع الأرض لمن شاء .

ولم ينس الشاعر، وهو بصدد مدح واستعطاف النعمان في قصيدته الثانية[٥٤]:

٤٠- أَنْتَ مِمَّا لاَقَيْتَ يُبْطِرُكَ الْأَغـ ـرَابُ بِالطَّيْشِ مُعْجَبٌ مَحْبورُ

أنْ يلومَ هذا الملك ويعذره في الآن نفسه على انسياقه وراء دسائس الأعداء، التي لم يجن منها الشاعر إلا السجن وصَرْف النعمة عنه إلى غير أهلها. ومع ما يتحمله عدي من سخط وظلم النعمان له، يمدحه قائلاً: وعلى الرغم من فعلتك بي، فإنك لو لم تتدارك العراق لساء حاله. فالله خصك بهذا الملك وارتضاه لك، لأنك ملك عادل أمين عالم بالذي تريد، عفيف، طائع ومتدين.

وهكذا ينهج عدي بن زيد المزج بين المدح والاستعطاف سبيلاً، لعله يغسل ما بدواخل النعمان من حقد، يطلق على إثره سراحه. وهذا الاستعطاف والمدح

(54) ديوانه ص ٩٠- ٩٢.

نفسه هو الذي سلكه الأعشى ميمون في قصيدته التي مطلعها[٥٥]:

أَتَرْحَلُ مِنْ لَيْلَى، وَلَمَّا تزَوَّدِ وَكُنْتَ كَمَنْ قَضَّى اللُّبَانةَ مِنْ دَدِ

وكذا المثقب العبدي في قصيدته التي استهلها بقوله[٥٦]:

أَلا إِنَّ هِنْدًا أَمْسِ رَثَّ جَدِيدُها وَضَنَّتْ، وَمَا كَانَ الْمَتَاعُ يَؤُودُهَا

ولما كان كل من الشاعرين يريد تحقيق هدف عند الملك، اعتمدا في مدحيهما على وجه التقريب المعانيَ الشعرية نفسها، المستمدة من القيم والمضامين التي نهل منها عدي بن زيد. فقد مدحاه بالنسب الصالح والأصل الكريم والقوة والدهاء في الحروب، والحزم في الرأي، والحكمة في سياسة الأمور وتسييرها، والجود في العطاء.

وقد مهد كل من الشاعرين بهذه المعاني المدحية للاستعطاف الذي كوَّن في حقيقة الأمر الدافع إلى القول، والذي على أهميته لم يهيمن هيمنة مطلقة على القصيدتين، وإنما احتل منهما الأبيات الأخيرة فقط، على عكس ما لمسناه في قصيدة عدي بن زيد التي بدا فيها الاستعطاف مسيطرًا، وبدا لنا المدح خادمًا له، وما ذلك إلا لأن عدي بن زيد ألهب السجن قلبه، وفجر أَنَّات الألم والشكوى في خفايا نفسه التي هوت بعد صعود، وتجرعت غصص المذلة والبؤس، بعد العز والرفعة والنعيم.

ولئن كان السبب في المدح والاستعطاف عند عدي بن زيد هو الذات الفردية العاجزة بسبب فقدان الحرية، فإن الدافع عند الأعشى هو الذات العاجزة أيضًا، لكنها عاجزة بسبب فقدان البصر، وهذا ما أظهره في البيتين الأخيرين من

(55) ديوانه ص ٩٤.

(56) ديوانه ص ٨٣ .

قصيدته[٥٧]، حين أشهد الله والحاضرين على اعترافه بجميل النعمان وفضله عليه، مفصحًا عن هدفه من مدحه في استعطافه للملك، وشكواه عَمَاه، وحاجته إلى أنيس يخفف عنه عبء وحدته .

ويتجاوز المثقب العبدي هذا الدافع الفردي إلى آخر جماعي مرتبط بالظروف العامة لقبيلته، التي كانت عاجزة عن فك أسرى لها كانوا بين يدي النعمان .

وهي غاية أبان عنها الشاعر في آخر أبيات قصيدته[٥٨]، حين استعطف الملك في أمرهم .

ويبدو أن تحقيق رغبة كل من الأعشى والمثقب، وإن كانت إحداهما مرتبطة بالذات الفردية والأخرى بالذات الجماعية، هو شيء وفعل قد يحققه الملك، وحتى إذا لم يحققه، فلن يزج بالشاعرين في السجن ولن يقتلهما .

على عكس ما نجده عند عدي بن زيد الذي تدخل الوشاة في علاقته بالنعمان، وعملوا على تحطيمها، وأوغروا صدر الملك عليه حتى أودى به إلى السجن، فعاش ذل العزيز، بعد أن ترعرع في القصور واعتاد خفض العيش وغضارة النعيم، ثم غدا بعد ذلك يتمنى بلهفة المكروب من يحمل شكواه إلى الملك، الذي كان أقرب الناس إليه، والذي لم يكن ليستتب له أمر الملك لولا شاعرنا، إلا أن وشاية الوشاة جعلته يجحد فضل عدي وينكر جميله، ويرمي به في غياهب السجون، ويتركه في عذابه يتأوه الحسرة تلو الحسرة، دون أن يرق له قلبه أو ينصت لشكواه. لقد أصم أذنيه عن آهاته وعن مدحه واستعطافه، بل جعل مصيره الموت المتعمد.

يكون بذلك عدي بن زيد، الشاعر الوحيد الذي عجز عن تحقيق هدفه

(57) ديوانه ص ١٠٠.

(58) ديوانه ص ١١٦ .

(نيل حريته)، وإن مدح واستعطف، في حين استطاع جل الشعراء نيل مرادهم إما بمدحهم واعتذارهم، أو مدحهم واستعطافهم، أو مدحهم وتحريضهم كما هو الشأن عند لبيد بن ربيعة العامري.

لم يكن المدح عند لبيد إلا لإثارة نخوة الملك فينصت إلى قوله،كما لم يكن التحريض إلا وسيلة لصد وجه النعمان عن خصمه. وهي غايات قصد إليها الشاعر قصدًا بعدما هَزِئَ الربيع بن زياد العبسي[٥٩] بقوم الشاعر وسخر منهم، وهم بمجلس النعمان أتوه في أسرى من بني عامر يشترونهم منه ومعهم ناس من بني جعفر[٦٠]، فغاظهم ما فعله الربيع بهم،فرجعوا بحال سيئة استفسرعن سببها لبيد – وهو غلام صغير خلفوه في رحالهم بعد أن دخلوا على النعمان بن المنذر – فقرر مرافقتهم عند الملك للأخذ بثأر قومه من الربيع.

ودخل لبيد وقومه على النعمان في مجلسه، فألفوه يأكل طعامًا مع الربيع، فاستأذنه في الكلام، فأذن له[٦١]، وأنشده قصيدته في المدح والتحريض، التي قدم لها بقوله[٦٢]:

لاَ تَزْجُرِ الْفِتْيَانَ عَنْ سُوءِ الرِّعَهْ يَارُبَّ هَيْجا هِيَ خَيْرٌ مِنْ دَعَهْ

حيث استهلها بنعت النعمان بابن أهل الكبرياء والزهو،كما افتخر بنفسه وقبيلته، ومدح بعدها الملك بأفضل المعاني، بالأصل العريق والعطاء الواسع والقوة والحق، منتقلاً من مدحه إلى تحديد هدف زيارته الكامن في قضاء أرب لهم عنده.

ولما اعترض الربيع بن زياد على كلام لبيد، انبرى له في القصيدة نفسها

(59) ديوان لبيد ص ٣٤٠، الأغاني ١٥ /٢٩٣، ٢٩٤، ١٧ / ١٢٠ .
(60) الأغاني ١٧ /١٢٠، ١٢١، ١٥ / ٢٩٣، ٢٩٤ .
(61) الأغاني ١٧/ ١٢٠ ،١٢١، ١٥/٢٩٤،٢٩٣ .
(62) ديوانه ص ٣٤٠ – ٣٤٣.

بأبيات هجاه فيها، حذر فيها النعمان من الأكل معه، وحرضه حتى أفسد قلبه عليه. فأرسل إليه: «إنك لست صانعًا بانتفائك مما قال لبيد شيئًا، ولا قادرًا على ما زلت به الألسن فالحق بأهلك»(٦٣).

وبذلك يبعد لبيد الربيع بن زياد عن النعمان، فيخلو له مجال القول ويقضي الملك حوائج الجعفريين ويصرفهم(٦٤). ويحقق بذلك الشاعر غايته الفردية والجماعية معًا. غاية الانتقام والأخذ بالثأر، وغاية قضاء المآرب والحاجات عند الملك.

ويمدح كل الشعراء السابق ذكرهم النعمان بن المنذر، وتتعدد بواعثهم المدحية، وتبتعد عن الإعجاب والشكر باعتبارهما دافعين أصليين لم نعثر عليهما إلا في مدح الحارث بن حجر والحارث بن حلزة للنعمان، حيث بدا دافع الإعجاب واضحًا في أبيات الحارث بن حجر التي قال في مقدمتها(٦٥):

سَمِعْتُ بِفِعْلِ الْفَاعِلِينَ فَلَمْ أَجِدْ كَمِثْلِ أَبِي قَابُوسَ حَزْمًا وَنَائِلاَ

وقد بدت من بديع ما نظم في هذا الملك، لأنها مجردة من أية غاية نفعية إلا غاية التغني بالجمال وحب الفضائل، والإشادة بالسجايا الحميدة، التي أظهرها الشاعر في معاني الكرم والشجاعة والتقوى والحزم. والتي بها يرى أن الله فضل هذا الملك على كل الناس، وجعله أعز الملوك وأجَلَّ من أن تمدحه الرعية، وساق إليه خير كل بلدة وجَعَلَهُ تحت أمره وتدبيره، ففاضت لذلك خيراته وعطاياه على كل من حل به وارتحل إليه .

ولما كان هذا الإعجاب هو الباعث الأصلي للمدح عند شاعرنا، ارتأينا

(63) الأغاني ١٧ / ١٢٢.

(64) نفسه ١٥ / ٢٩٤ .

(65) ديوان الحماسة ٢ /٢٩٤ .

تصنيف أبياته ضمن المدح الخالص، وأضفنا إليه فيما بعد، أبيات الحارث بن حلزة التي يقول في أولها(٦٦):

لَمَّا جَفَانِي أَخِلاَّئِي وَأَسْلَمَنِي دَهْرِي وَلَحْمُ عِظَامِي الْيَوْمَ يُعْتَرَقُ

وهي ثناء على الممدوح غايته الشكر، ذلك أن الشكر عامة، والمدح بمعنى الشكر، لا يكون الا على فضلٍ قدَّمه المشكور، والشاعر لا يستطيع أداء حقه إلا بالشكر إعظامًا له.

ويتبين هذا الباعث للمدح عند الحارث بن حلزة، لما أخذ النعمان بيده وساعده بعد أن جفاه الأصدقاء، وتخلوا عنه كما تخلى عنه الدهر من كبر. فلم يجد الشاعر وسيلة لرد هذا الجميل للنعمان إلا بمدحه وشكره على سخائه وكرمه وشجاعته ومده له ولأمثاله من المحتاجين والمعوزين يد المعونة .

ونستخلص من هذه الرؤية الموضوعية للقصائد السابقة في مدح النعمان ابن المنذر، أن المعاني التي أضفاها الشعراء على هذا الملك في قصائدهم، ليست مجرد شعارات رفعها الشعراء مجاملة قصد تحقيق هدف من الأهداف، وإنما هي نتيجة أفعال حميدة لهذا الملك، نال عليها الإعجاب والشكر اللذين هما في حقيقة الأمر نعمة عظيمة يسعد بها الممدوح، وتدل على رفعة خلقه ونبل نفسه وعلو مقامه. وهي سجايا خلقية كان يعلمها كل الناس وفيهم الشعراء، لذلك ضربوا على وترها الحساس في استهلالهم واختتامهم لكل أشعارهم المدحية المتنوعة، مؤكدين ومضخمين من قيمتها حسب كل غاية وهدف.

(66) ديوانه ص ٥٨ .

فهرست المصادر

١– الأصمعيات، لأبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (–٢١٦هـ (، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، الطبعة الخامسة بيروت لبنان .

٢– الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (– ٣٥٦ هـ(، تح وإشراف لجنة من الأدباء، طبعة دار الثقافة بيروت.

– الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه عبد العلي مهنا وسمير جابر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٦ م.

٣– الديارات، لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابستي (– ٣٨٨ هـ(، عني بتحقيقه ونشره كوركيس عواد، مطبعة المعارف بغداد.

٤– ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، قدم له وشرحه وضبطه أحمد قاسم، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م.

٥– ديوان الحارث بن حلزة، إعداد طلال حرب، الدار العالمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ، ١٩٩٣ م.

٦– ديوان الحماسة، وهو ما اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائي من أشعار العرب، شرح التبريزي، دار القلم بيروت لبنان.

٧– ديوان عدي بن زيد العبادي، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد، طبعة ١٩٦٥ م.

٨– ديوان عمرو بن كلثوم، إعداد طلال حرب، الدار العالمية بيروت لبنان .

٩– ديوان المثقب العبدي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي ١٣٩١هـ –١٩٧١م.

١٠– ديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف./ – ديوان النابغة الذبياني، صنعة ابن السكيت، تحقيق: د. شكري فيصل.

١١– ديوان امرئ القيس، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف.

١٢– شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدم له إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤ م.

١٣– العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني (– ٤٥٦ هـ)، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

١٤– الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين (٦٣٠هـ)، دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ، ١٩٧٨م .

١٥– نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر (–٣٣٧هـ)، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية بيروت .

١٦– مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم النيسابوري الميداني (– ٤١٨ هـ)، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة ١٣٧٤ هـ.

١٧– معجم البلدان، للإمام شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، طبعة دار صادر بيروت.

١٨– معجم ما استعجم في أسماء البلاد والمواضع، لأبي عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (– ٤٨٧هـ)، تحقيق مصطفى السقا، طبعة ١٣٦٦هـ، ١٩٧٤م .

١٩– المفضليات، للمفضل بن محمد بن يعلى الضبي، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، الطبعة السادسة بيروت لبنان.

٢٠– منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لأبي الحسن حازم القرطاجني (–٦٨٤هـ)، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م، دار الغرب الاسلامي بيروت لبنان.

المراجع

٢١– فجر الإسلام، لأحمد أمين، دار الكتب بيروت، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٥ م.

٢٢– المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لجواد علي، طبعة دار العلم للملايين بيروت.

٢٣– تاريخ الدولة العربية، لعبد العزيز سالم، طبعة دار النهضة العربية بيروت ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .